

وما بالها ما تزال تستطلع طُلَع كل قادم من سفر، وكل عائد من غَزاة، وكل مُبجِرٍ في صائفة؟

وما بالها — مع ذلك — قد طابت نفساً بخروج ولدها لحرب الروم؟
ما بالها قد شحذت له أَمْضى سيوف أبيه حَدًّا، وأومضها صفحة؟
وما بالها قد رضيت له نوار زوجاً يَمهرُها رأس بطريق من بطارقة الروم؟
ثم ما بالها قد دفعت إليه — حين مسيره — تلك التميمة التي كانت قِلادة صدرها صبيّة، ليُحرزها فتُحرزه ... وتلك الجوهرة التي كانت زينة مفرقها طفلة، ليذكرها بها وتذكره؟ ...

أبوعِي دفعت إليه ذينك الأثرين، أم دفعتهما بلا وعي ولا إرادة؟
وكيف تُحرز مسلماً تميمة رومي لا يؤمن بدين محمد؟
وكيف تُذكره إياها جوهرة لم يرها في مفرقها قط؟
أما تزال نفسها تُنازعُها إلى دينٍ ووطنٍ غير هذين الدين والوطن؟

وعَبَرَ على الطريق — وهي في خلوتها تلك إلى أشجانها — حادٍ يُنشد:

تَعَزَّ بصبرٍ لا وجدك لا ترى سنام الجِمي أخرى الليالي الغواير
كأنَّ فؤادي من تذكري الجِمي وأهل الجِمي يهفو به ريش طائر

فَهتفت بلا وعي: ردُّوه علي!

ثم أخفت وجهها في راحتها وأجهشت باكية.

وكان عتية في تلك اللحظة خاليًا بنفسه كذلك في خيمة من خيام الجُند، يُقَلَّب بين يديه قِلادة وجوهرة، ولكنه لا يذكر من أمر صاحبتهم شيئاً؛ فقد كان خياله مُفعمًا بصورة أخرى قد ملكت عليه حسّه ونفسه، وفاضت معانيها شعراً على لسانه ودموعاً في عينيه ...

أُترى نوار تذكره الساعة كما يذكرها؟ وهل يعود إليها كما أمّلت، قد حصَّل لها مهراً وأدرك ثأراً ووفى بنذر، فيضع بين يديها تاج بطريق وسلَّبه، ويسألها الوفاء بما وعدت؟